نكبة مدينة القدس على أيدي الصليبيين في الشعر القديم

الدكتور أحمد عقون
كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية ـ جامعة باتنة

مقدمة:

إيمانا بأن الصلة وثيقة بين الشعر والحياة، وأن الحياة والشعر صورتان مختلفتان لشيء واحد، وأن التجارب الشعرية تنزع في غالب الأحيان إلى الاقتراب من واقع العصر وما يطرأ فيه من أحداث، واعتقادا أن الشاعر يشارك قومه في قضاياه المصيرية، بقدر يفوت في أحيان كثيرة المؤرخين والعلماء، رأيت أن أعرض نكبة القدس على أيدي الصليبيين من خلال ثلاث قصائد لشعراء قدامى، عبروا من خلالها، بصدق عن معاناة مدينتهم المخربة، وأبانوا عن سخطهم الكبير إزاء بني جلدتهم المقصرين في الدفاع عنها.

وقبل هذا أود أن أذكر في إيجاز بعض الأسباب التي حملت الصليبيين على غرو المشرق العربي عامة والقدس خاصة.

فمن الأسباب الدينية ؛ إدعاء زوار بيت المقدس من المسيحيين على أن المسلمين يضايقونهم ويعاملونهم بجلافة وقسوة، وينتهكون الأماكن النصرانية المقدسة، ومن أشهر هؤلاء الزوار بطرس الناسك، أعظم داعية للحروب الصليبية، هذا الرجل الذي، لم يتوان في إثارة حماسة المسيحيين واستنفار عواطفهم للقيام بحرب صليبية ضد المسلمين، على الرغم من أنه زار القدس وكنيسة القيامة.[1] وعاد إلى أوربا دون أي أذى.

وقد يكون بعض ادعاءات المسيحيين صحيحا، إذ ((كانت بلاد الشام في النصف الأخير من القرن الخامس الهجري تعيش ظروفا حربية استثنائية[2]، مما لا يبعد- في هذه الحالة- أن يجد الزوار الأجانب والوافدون على البلاد الشامية والفلسطينية مضايقة وعنتا، ولكن ذلك لا يصل- مهما بلغ الأمر-إلى مبالغة النصارى-زوار بيت القدس- الذين أخذوا يهولون الأمر في أوربا ويسمون المسلمين بالتعصب واضطهاد المسيحيين وانتهاك حرمة أماكنهم المقدسة))[3].

وتأثر البابا (أربان الثاني Urbain2) بما سمعه عن معاملة المسلمين السيئة للمسيحيين واستعمل جميع وسائل الإغراء لإثارة حمية الصليبيين وحملهم على غزو بلاد المسلمين، وأخذ بيت المقدس، وانتهز فرصة اجتماع المجمع الديني العظيم سنة 488هـ (1095م) في مدينة كلرمون (clermont) [4]، الذي حضره آلاف الفرسان، وحرض المؤمنين من النصارى على أخذ بيت المقدس من أيدي المسلمين، وركز في أثناء توعيته للمسيحيين على أن هذه الحرب ليس الغرض منها اكتساب مدينة واحدة، بل كل أقاليم آسيا بغناها وخزائنها التي لا تحصى، ونبههم إلى أن يتخذوا محجتهم فتح بيت المقدس، ويأخذوا كل الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين ويمتلكوها لذواتهم، ذلك لأن هذه الأرض كما قال التوراة تفيض لبنا وعسلا، وبهذا وعده جمهور كبير من شتى طبقات الشعب أن يرحلوا إلى فلسطين لتنفيذ أوامره. [5]

ومن الأسباب السياسية، التي دعت أيضا إلى الحروب الصليبية أن " ألكسيوس كومنين"[6] إمبراطور الروم البزنطيين راسل الباب أوربان الثاني مستنجدا به، لما اضطره الأمير السلجوقي "برسق"[7] على دفع الجزية لسلطان المسلمين، مقدارها ثلاثمائة ألف دينار سنويا، وثلاثون ألف دينار يأخذها هو كل عام[8]، ومما قاله الكسيوس للبابا في رسالته: ((إن من الحكمة أن تحارب الأتراك في أرض آسيا بدل أن تنتظرهم حتى يقتحموا

بجحافلهم بلاد البلقان إلى عواصم أوربا الغربية))[9] ورغبة في توحيد كل من الكنيسة الشرقية والغربية، تحت سيطرة البابا، دعا هذا الأخيرُ إلى الحرب المقدسة-كما يسميها -ضد المسلمين.[10]

ومن الأسباب الاقتصادية، حرص تجار أوربا، وبالأخص الإيطاليين، على امتلاك موانئ تجارية لهم على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، كي يربطوا بين أوربا وبلاد المسلمين عن طريقهما، لهذا أنفقوا أموالا طائلة للتشجيع على الحروب الصليبية والدعوة لها.[11]

ومن الأدلة البارزة على أن للصليبيين هدفا اقتصاديا، أنهم لما احتلوا دمياط في أثناء الحملة الصليبية الخامسة (613هـ)، رفضوا عرض الملك الكامل المتمثل في جلائهم عن دمياط والسواحل المصرية مقابل استيلائهم على بيت المقدس ومعظم مدن فلسطين[12]، ولو كان غرض هؤلاء دينيا لما ترددوا في قبول اقتراح "الكامل" ولأسرعوا إلى بيت المقدس وغيره من المدن المتصلة بأصول الديانة المسيحية لامتلاكها والمحافظة عليها، كما يدعون[13].

ومن الأسباب التي دعت إلى الحروب الصليبية أيضا، سوء الأوضاع الداخلية بأوربا، إذ أن المجتمع الأوربي آنذاك كان يسوده نظام إقطاعي، نتج عنه ظهور طبقة من الفرسان المحترفين الذين أحبوا أن يظهروا بطولاتهم على أرض جديدة لكسب الشهرة والمال. وفي ظل هذا المجتمع أرهقت الطبقات الدنيا من الشعب وانحطت إلى الدرك الأسفل من الفاقة والاحتياج فهي التي تدفع الضرائب وتلاقي الظلم والإرهاق، إضافة إلى أنها كانت أكثر تضررا من أي طبقة أخرى، بالمجاعة التي عمت أنحاء أوربا زمن الحروب الصليبية، أما الأشراف الإقطاعيون ابان هذه الفترة، فقد كانت تسودهم فكرة تكوين الممالك والإمارات خارج بلاد أوربا، وبهذا شكل الفرسان جانبا لا يستهان به من الجيش الصليبي، ولبت الطبقة الكادحة نداء الكنيسة الذي كانت تراه المنفذ الوحيد الذي ربما ينقذها من معاناتها ويرسل

بها إلى الانعتاق، وأدى الأمر بالسادة الإقطاعيين إلى تعبئة الجيوش لتحقيق مطامعهم وأغراضهم، وتآزر الجميعُ على المساهمة في الحروب الصليبية.[14]

أما ما يتعلق بالشرق الإسلامي عند بداية الحروب الصليبية، فإن تفرق السلطة فيه واختلافها من أقوى الأسباب التي شجعت الصليبيين على محاولة احتلال أراضي المسلمين؛ كيف لا وقد كانت الخلافة السياسية في القرن الخامس الهجري على حالة يرثى لها، من الفوضى والانحلال إذ ما أن انتصب بنو بويه الشيعيون ببغداد سنة (334هـ) حتى استحكم العداء بينهم وبين الخليفة العباسي المستكفى وعامة الناس وهو سنيون- فأمتلات البلاد بالفتن المذهبية وشاع شغب الجند إلى أن وقع احتلال بغداد من قبل الأتراك السلاجقة[15]- سنة (447هـ) أزيل سلطان بني بويه، وقد استطاع السلاجقة في بداية حكمهم أن يجمعوا شتات المشرق الإسلامي تحت رايتهم، وامتد سلطانهم امتدادا عظيما، إلا أنه ما إن تولي السلطان السلجوتي ملكشاه سنة (485هـ) حتى انفرط عقد السلطة السلجوقية التي كانت تمتد من بلاد الصين شرقا إلى سواحل الشام غربا ومن بلاد القوقاز شمالا إلى اليمين جنوبا.[16]

أما الخلافة الفاطمية التي كانت تحكم مصر، فإنها كانت قبيل إعلان الحروب الصليبية، تعاني من تضعضع سلطانها وإشرافها على الاضمحلال، ذلك لأن أمر هذه الخلافة آل إلى أمراء ووزراء كان همهم الوحيد السعي إلى تحقيق مآربهم وإشباع رغباتهم، وأكثر من هذا، فإن هناك من يعزو أسباب غزو الصليبيين للشرق الإسلامي إلى مراسلة الفاطميين، وتشجيعهم على مهاجمة السلاجقة الذين تغلبوا على الفاطميين لهم، وافتكوا منهم البلاد الشامية، وكانت آمالهم كبيرة في أن يتغلب الفرنجة على السلاجقة ويُضعفوا مركزهم ويقللوا من شأنهم، مما يسمح للفاطميين باسترجاع الأراضي التي اغتصبها منهم السلاجقة.[17]

وهكذا حدد موعد الحملة الصليبية الأولى سنة 489هـ، على أن يكون اللقاء بمدينة القسطنطينية[18]، إلا أنه، قبل الموعد المضروب، سارت كتائب صليبية شعبية على غاية من الفوضى والاضطراب ولما وصلت مدينة قونية[19] التي كانت تحت حكم قليج أرسلان، استطاع هذا الأخير أن يقضي عليها قضاء مبرما، ولما علمت أوربا بهذا النبأ سيرت جيوشا صليبية أخرى على النظام التالي:

سار الجيش الأول من أعالي فرنسا في بلاد البلجيك الحالية بصحبة عدد من قواد فرنسا والنمسا متجها إلى القسطنطينية عبر شمال ألمانيا.

وسار الجيش الثاني من جنوب إيطاليا عبر البحر مارا على إيطاليا إلى القسطنطينية.

وسار الجيش الثالث من جنوب فرنسا، وأخذ طريقه إلى شمال إيطالي فشمال اليونان فالقسطنطينية.

وقد استطاع الصليبيون أن يحتلوا مدينة قونية سنة 490هـ بعد أن دافع عنها أهلها دفاعا مستميتا،ثم انقسموا قسمين قسم اتجه إلى شطوط الفرات واحتل إمارة الرها[20] وهي إمارة مسيحية يحكمها أمير يوناني يدفع جزية سنوية للمسلمين، أما القسم الأخر من الصليبيين فقد سار عبر سورية مستوليا على كثير من المدن صلحا إلى أن وصل أنطاكية، وحاصرها حصارا شديدا وقد حاول أمراء السلاجقة نجدتها وفك الحصار عنها، وبين هم كذلك، كان الفاطميون قد انتهزوا فرصة انشغالهم، لافتكاك بيت المقدس من أيديهم، وأكثر من هذا، فإن الخليفة الفاطمي المستعلي (487-495هـ) بعث وفدا إلى الصليبيين يعرض عليهم الصلح والمسالمة، ولم تجد نفعا نجدة السلاجقة لفك الحصار عن أنطاكية، واستطاع الصليبيون أن يستولوا عليها سنة 491هـ.[21]

وما زال المسلمون متخاصمين، لا يرجى منهم دفع البلاء عن بلادهم، وتركوا للأفرنج حرية احتلالها والتمثيل بأهلها؛ إذ أن في السنة نفسها التي تم فيها احتلال أنطاكية، استولى الفرنجة على معركة النعمان، بعد حصار طويل، وضعوا السيف في المسلمين ثلاثة أيام وقتلوا وسبوا منهم الكثير، وخربوا بلادهم. (22)

وما إن استولى الصليبيون على أنطاكية ومعركة النعمان حتى واصلوا تقدمهم في بلاد المسلمين وقد قصدوا هذه المرة بيت المقدس مارين بحماة وحمص وغيرهما، وفي منتصف جوان (حزيران) 1099م (492هـ)، وصل الصليبيون إليها وناصبوها الحصار، وفي هذه الأثناء كان بيت المقدس تحت سلطة الفاطميين، وكان حاكمها من طرف الفاطميين افتخار الدولة، هذا الذي فاجأته القوات الصليبية واستطاعت أن تستولي منه على بيت المقدس، في شعبان سنة 492هـ، بعد حصار دام أربعين يوما، وقد فتك الصليبيون بالمسلمين فتكا ذريعا إذ قتلوا داخل المسجد الأقصى وحوله وما يربو عن سبعين الفا، أغلبيتهم من العلماء والزهاد والعُبّاد، كما نال اليهود منهم أفضع التعذيب والتقتيل والحرق (23)

وقد وصف أبو المحاسن صاحب كتاب النجوم الزاهرة، حدث وقوع بيت المقدس في أيدي الصليبيين، فقال ((وأما أخذ بيت المقدس فكان يوم الجمعة الثالث والعشرين شعبان سنة 492هـ، وهو أن الفرنج ساروا من أنطاكية، ومقدم الفرنج في "كند هري" في ألف ألف، منهم خمسمائة ألف مقاتل فارسي، والباقون رجالة وفعلة وأرباب آلات من مجانيق وغيرها وجعلوا طريقهم على الساحل، وكان بالقدس افتخار الدولة من قبل المستعلي خليفة مصر، فأقاموا يقاتلون أربعين يوما، وحكموا على البلد وكشفوا من كان عليه من المسلمين ورموا بالمجانيق والسهام رمية رجل واحد، فانهزم المسلمون فنزلو الى البلد وهرب الناس إلى الصخرة والأقصى واجتمعوا بهال فهجموا

عليهم وقتلوا في الحرم مائة ألف وسبوا مثلهم وقتلوا الشيوخ والعجائز، وسبوا النساء))[24]

وقد عز على المسلمين والشعراء على وجه الخصوص أن يستولي الإفرنج على بيت المقدس، ونظم الشعراء قصائد صوروا فيها أحداث هذه الفاجعة التي حلت بالمسلمين، ومن هؤلاء أبو المظفر الأبيودي[25] الذي نظم قصيدة ميمية[26] فتتحها بدعوة المسلمين إلى الاستعداد لمواجهة شر الحرب والقيام في وجه الأعداء الذين ألحقوا بهم أذى كبيرا عوضا عن البكاء والنحيب، يقول:

مزجنا دماء بالدموع السواجم فلم يبق منا عرضة للمراحم

وشر سلاح المرء دمع يفيضه إذا الحرب شبّت نارها بالصوارم

فايها بني الإسلام إن وراءكم وقائع يلحقن الذرا بالمناسم.

ويمضي الشاعر متعجبا من تقاعس المسلمين وتكاسلهم، وإخوانهم يلقون الهوان على أيدي الصليبيين، فقد ألحق بالمسلمين أذى كبيرٌ، واستبيحت دماء غير قليل منهم وأعتدي على أعراضهم، وفي هذا يقول:

وكيف تنام العين ملء جفونها على هفوات أيقظت كل نائم

واخوانكم بالشام يضحي مقيلهم ظهور المذاكي أو بطون القشاعم[27]

تسومهم الروم الهوان وأنتم تجرون ذيل الخفض فعل المسالم

وكم من دماء قد أبيحت ومن دمى تواري حياء حسنها بالمعاصم

وينبه الشاعر المسلمين-فيما يلي من أبيات- إلى أنه لا بد من خوض غمار الحرب لأن المشركين لن يترددوا في القضاء عليهم إن وُفقوا إلى ذلك:

وتلك حروب من يغب عن غمارها ليسلم يقرع بعدها سن نادم

سللن بأيدي المشركين قواضبا ستغمد منهم في الطلى والجماجم[28]

ويعطي صورة حية عن المسلمين، فيذكر أنهم نائمون لا يحركون ساكنا، رغم أن دينهم هدت أركانه، ولكي يثر الشاعر همهم ويحرك نفوسهم، تساءل متعجبا من تهاونهم وصبر الكفار على أخطار الحرب، وتمنى أن يغاروا على المحارم إن هان عليهم الدين، وأن يخوضوا الوغى رغبة في الغنائم إن زهدوا في ما سيلقونه من جزاء في الآخرة، فيقول:

أرى أمتي لا يشرعون إلى العدا رماحهم، والدين واهي الدعائم

أترضى صناد يد الأعارب بالأذى ويغضي على كماة الأعاجم[29]

فليتهم إذ لم يذودوا حمية عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم

وإن زهدوا في الأجر إذ حمس الوغى فهلا أتوه رغبة في الغنائم

وينهي الشاعر قصيدته بدعوة المسلمين إلى القتال في الوقت الذي كانت الحرب تنظر إلى المسلمين بإلحاح بعيون كعيون النسور القوية، تترقب منهم غارة عربية لا تبقى ولا تذر حتى تجعل الصليبيين بعدها يطيلون عض أصابعهم ندما. إنكم أيها المسلمون إن لم تهبوا وتغضبوا غضبتكم تلك لإنقاذ إخوانكم المنكوبين كان علينا أن نرمي بحريمنا إلى أعداء الاسلام، فهل لكم ألا تغضبوا؟

دعوناكم والحرب ترنوا ملحة إلينا بألحاظ النسور القشاعم

تراقب فينا غارة عربية تطيل عليها الروم عض الأباهم

فإن أنتم لم تغضبوا بعد هذه رمينا إلى أعدائنا بالجرائم

هذا، ونلاحظ على القصيدة بصفة إجمالية، أن الشاعر من خلالها، يخاطب السامعين مستخدما كل أساليب الحث والإشارة كي يجعلهم يقتنعون بلزوم الثورة والجهاد، وكي يثير نخوتهم ويدفعهم إلى العمل على التحرر، مثله في ذلك مثل شعراء الاستغاثة في الأندلس، كما أن الشاعر في هذه القصيدة طرق موضوع وصف حال المسلمين وما كانوا يعانونه من ألم وحسرة في أسلوب سهل يفهمه جميع الناس، ولكنه لم يخل من معاني جملة وصور بلاغية موفقة كصورة الحرب وهي ترنوا إلى المسلمين بألحاظ النسور تدعوهم إلى القتال، كما لم يخل من العبارات التي تؤجج العواطف أضف إلى ذلك أنه استطاع أن يعبر عن استنكاره وحسرته وغضبه لما طرأ على واحد من أقدس الأماكن عند المسلمين، ألا وهو بيت المقدس، كما استطاع أن يطرق من المعاني ما يمس آماله وآمال المسلمين المخلصين وتطلعاتهم ومخاوفهم، وينبههم إلى ما يحيط بهم من خطر إن لم يتسارعوا إلى دفعه.

ولشاعر مجهول قصيدة أخرى بائية[30] نظمها بمناسبة سقوط القدس، استهلها بتصوير ألمه وحزنه على ما آل إليه حال هذه المدينة المقدسة، إذ فيها، أحل الكفر بالإسلام ضيما يستدعي البكاء والنحيب، كما اغتصب الكفار حقوق المسلمين واستباحوا حماهم، وأهدروا دماءهم فبات كثير منهم سليب المال والعرض، وقد حول كثير من المساجد إلى كنائس وأديرة، وعلق على محاربها صلبانا، وأكثر من هذا فإن الأعداء بلغ بهم حقدهم على المسلمين، واستهانتهم بمقدسات الإسلام درجة أنْ ذبحوا الخنازير في المساجد وأحرقوا المصاحف. يقول في هذا:

أحل الكفر بالإسلام ضيما يطول عليه للدين النحيب

فحق ضائع وحمى مباحٌ وسيف قاطع ودم صبيب

وكم من مسلم أمسى سليبا ومسلمة لها حرمة سليب

وكم من مسجد جعلوه ديرا على محرابه نصب الصليب

دم الخنزير فيه لهم خلوق وتحريق المصاحف فيه طيب[31]

ويمضي فيما يلي من أبيات، متعجبا مندهشا مما آل إليه حال المسلمين، فيذكر أن ما طرأ عليهم في هذه المدينة لمصاب عظيم لو فكر فيه طفل صغير لشابت جوانب رأسه جزعا وتحسرا، ويتساءل متألما منكرا على المسلمين تقاسعهم وميلهم إلى الراحة وهم يرون بأعينهم مسلمات في كل جهة يسبيهن الأعداء فيقول:

أمور لو تأملهن طفل لطفل في عوارضه المشيب[32]

أتسبى المسلمات في كل ثغر وعيش المسلمين إذا يطيب

أما لله والإسلام حق يدافع عنه شبان وشيب

وينهي الشاعر قصيدته ببيت من الشعر ضمنه دعوة حارة إلى المسلمين الواعين ليستجيبوا إلى أمر الله، ألا وهو الجهاد والدفاع عن الدين والحمى:

فقل لذوي البصائر حيث كانوا أجيبوا الله ويحكم أجيبوا

وبهذا فالقصيدة ، يدور موضوعها حول ما حاق بالمسلمين من ضيم على اثر اجتياح مدينتهم المقدسة، فهم يطلبون الغوث كما جاء في قصيدة الأبيوردي السابقة التي نظمها في الموضوع نفسه، وقد استمدت قوتها مما تحمله من

شعور صادق ومما ساق فيها الشاعر من صور معبرة ونسق وتعبير يثير مشاركة المسلمين الوجدانية، ولا غرو فإنها ذات طابع ديني يصدر فيها صاحبها عن تعاليم الإسلام وما تدعو إليه من رعاية للمقدسات وحماية الأعراض ودعوة إلى الجهاد في سبيل الوطن، وقد كان الشاعر فيها كما يقول الأستاذ نعيم الحمى ((... ابن عصره وبيئته، فكان مسلما غيورا على دينه ومقدساته وقومه وأعراضهم، وعلى بلاده وخيراتها ومصالحها العاجلة والآجلة... وإذا كانت الأبيات وليدة البيئة والعصر وظروف الحرب المحيطة بالأمة وبالشاعر، فإننا نرى فيها اثر البيئة واضحا، فالشاعر يتحدث عن الكفر وبطشه والإسلام ومصيبته، والناس وما أصابهم نساء ورجالا والمقدسات وما اعتراها من أشياء يعتبرها المسلمون تدنيسا وكفرا واستهتارا.)) [33]

ولنمضي في سرد الأحداث لنشير إلى أنه في السنة نفسها، التي استولى فيها الفرنجة على دمياط سنة 616هـ، أقدم الملك الأعظم عيسى صاحب دمشق، باتفاق مع الأمراء على تخريب بيت المقدس، ذلك لأنهم بُلغوا أن الفرنجة عازمون على أخذه منهم، وأن خلو بلاد الشام من العساكر للدفاع عنها، قد أخافهم من استيلاء الفرنجة عليها كلها، لو أخذوا بيت المقدس ((فشرعوا في خراب السور أول يوم من المحرم، ووقع في البلد ضجة عظيمة، وخرج النساء المخدرات والبنات والشيوخ وغيرهم إلى الصخرة[34] والأقصى وقطعوا شعورهم، ومزقوا ثيابهم وفعلوا أشياء من هذه الفعال، ثم خرجوا هاربين، وتركوا أموالهم وأهاليهم، وما شكوا أن الفرنجة تصبحهم، وامتلأت الطرقات بهم، فتوجه بعضهم إلى مصر، وبعضهم إلى الكرك، وبعضهم إلى دمشق، وكانت البنات المخدرات يمزقن ثيابهن ويربطنها على أرجلهن من الحفاء، ومات خلق كثير من الجوع والعطش، ونهبت الأموال التي كانت لهم بالقدس وبلغ ثمن القنطار من الزيت

عشرة دراهم والرطل من النحاس بنصف درهم، وذم الناس المعظم فقال بعض أهل العلم، في ذلك:

في رجب حلل الحميّا وأخْرب القدس في المحرم[35]

-وقد كان سقوط مدينة القدس هذه المرة حافزا لبعض شعراء المسلمين على البكاء والتحسر، ومن هؤلاء الشاعر شهاب الدين بن المجلور الذي طالعنا بقصيدته تائية[36] في رثاء مدينة القدس والمسجد الأقصى، وافتتحها بالبكاء والإكثار من الدموع، لعل في ذلك ما يطفئ لهيب النار الذي يحرق جوانحه، وبدعوة قلبه إلى تذكر مصاب المدينة المؤلم بإضرام نار الحزن كلما خمدت وسكنت، وبدعوة نفسه إلى البوح بأشجانها، لعل ذلك يخفف ما ألم به من جراء ما لحق بالمسجد الأقصى، ذي القدر العظيم، ومكان الخشوع والابتهال والقبلة الأولى -التي اتجه إليها المسلمون ،لأداء صلواتهم، وأفضل معمور، وأشرف مبنى و أكرم العابيدين، فيقول:

أعيني لا ترقي من العبرات صلي في البكاء الأصال بالبكرات

لعل سيول الدمع يطفئ فيضُها توقد ما في القلب من جمرات

ويا قلب أسعر نار وجدك كلما خبت بادّ كار يبعث الحسرات

ويا فم بح بالشجو منك لعله يروّح ما ألقى من الكربات

على المسجد الأقصى الذي جل قدره على موطن الإخبات والصلوات[37]

على القبلة الأولى التي اتجهت لها صلاة البرايا في اختلاف جهات

على خير معمور وأكرم عامر وأشرف مبنى لخبر بناة.

ويتابع الشاعر – فيما يلي من أبيات – إظهار أساه على المسجد الأقصى، فيذكر أنه قد عفا وخلا من العابدين و التائبين بعد أن كان موطنا للخير و الإحسان يؤمه المصلون و القانتون المطيعون لله و الداعون إلى صراطه، فيقول:-

عفا المسجد الأقصى المبارك، حوله الرفيع العماد العالي و الشرفات
عفا بعد مـــا قد كان للخيـــر موسما وللبـــر و الإحســـان والقربات
يوافي إليـــه كل أشْعـــثَ قانـــت لمـــولاه برّ دائـــم الخـــلوات
خلا من صلاة لا يمـــل مقيمـــها توشـــح بالآيات والســـورات
خلا من حنين التائبين وحزنهـــم فمن بيـــن نواح وبين بكـــاة

وينتقل الشاعر في البيتين التاليين ليستغيث بالمسلمين وينبههم إلـــى فداحة الخطيب، فيسوق عبارات إنشائية يدعو فيها كل بلاد المســـلمين إلـــى إعلان حزنها على القدس، ويخص بالذكرمكة لترفع الشكوى إلى عرفـــات، فيقول:-

لِتَبْكِ على القدس البلاد بأسرها وتعلن بالأحزان و الترحات[38]
لتبك عليهـــا مكة فهي أختهـــا وتشكو الذي لاقت إلى عرفات

وتقطر أبياته بالسخط حين يتحدث عن المتسبب في خراب المدينة، فيلمع إلى أن الملك المعظم و المتآمرين معه هم الذين تسببوا في تفرق شمل أهلها، بتهديمهم المدينة، بعد أن بنى صلاح الدين صرحها وعمرانها، ثم يشير إلى أن أبناء بني أيوب بفضل مسعى جدهم صلاح الدين، وما قام به من أعمال عظيمة قد أصبحوا من الأسياد، وأن فتح القدس الذي تم على يده كان زهرة أعمالهم المجيدة.

لقد شتتـــوا عنها جماعة أهلهـــا وكل اجتماع مؤذن بشتات
وقد هدموا مجد الصلاح بهدمها وقد كان مجدا باذخ الغرفات[39]
وقد أخمدوا مجدا وصيتا آثاره لهم عظم ما والوا من الغزوات
أما علمت أبناء أيوب أنهـــم بمسعاته عدوا من السروات

وأن افتتاح القدس زهرة ملكهم وهل ثمر إلا من الزهرات

- وينهى الشاعر تصوير مأساة المسلمين في مدينة القدس بدعوتهم إلى بكائها و النوماح عليها، مضمنا بيتا لدعبل الخزاعي ينطبق معناه على الحالة المزرية التي آلت إليها هذه المدينة، فيقول: -

فمن لي بنائحات ينحن على الذي شجاني بأصوات لهن شجاة

يرددن بيتـــا للخزاعـــي قالـــه يؤبن فيه خيرة الخيـــرات

((مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات))

- ونرى أن هذه القصيدة تعبر عن عاطفة حارة صادقة، وهي وأن كانت بشكل عام بكاء على مدينة القدس و المسجد الأقصى، تحمل معاني الدعوة إلى إنقاذ هذه المدينة وإغاثتها، وقد ركز الشاعر فيها على العاطفة الدينية كي يذكي - فيما أرجح- نار الثأر في نفوس سامعيه لاستعادة المدينة، إذ أن المسلمين قد اتصفوا بشدة غيرتهم على الإسلام وتعاليمه، وقد وفق الشاعر إلى بلوغ هدفه وهو إثارة حمية المسلمين لإنقاذ المدينة والمسجد الأقصى.

- وفي "النجوم الزاهرة" لابن تغري بردي نجد أبياتا أخرى نظمها شاعر مجهول حين زار القدس ورأى خرابها وما تبقى منها من ربوع ففاضت عيونه دمعا ونفسه حسرةً على المدينة الشريفة ووقف داعيا على ذلك العلج الصليبي الذي أراد أن يطمس ما بقي من اثارها، دعا عليه أن تشل يمينه، فلا يقدر أن يخفي رسومها ليبقى مكانها معلوما أمام السائل عنها من المسلمين، وكيف لا، وهي المدينة التي يتمنى الشاعر وكل مسلم أن يفدوها بنفوسهم، لو كانوا يستطيعون الفداء: -

مررت على القدس الشريف مسلما على ما تبقى من ربوع كأنجم

ففاضت دموع العين مني صبابة على ما مضى من عصرنا المتقدم

وقد رام علج أن يعفي رسومه وشمر عن كفي لئيم مذمم

فقلت له شلت يمينك خلها لمعتبر أو سائل أو مسلم

فلو كان يُفدي بالنفوس فديته بنفسي وهذا الظن في كل مسلم[40]

و الشاعر هنا قد صدر في أبياته عن معاناة الخطب، ونقل إلينا احساساته في صدق لا يدع مجالا للمبالغة، وكان بعيدا عن التكلف و الصنعة، ونلاحظ أن معاني هذه الأبيات وإحساساتها المعبرة عن مآسي المسلمين وآلامهم، قد رأيناها في قصائد رثاء القدس السابقة

وهكذا استطاع هذا الشعر أن يعبر أصدق تعبير عن الام المسلمين في القدس ومخاوفهم بعد خراب مدينتهم، وان الشعراء كانوا يصدرون فيه عن صدق عاطفة وشدة معاناة، بيد أنهم فيما يتعلق بأمر تحديد أسباب نكبات القدس، آثروا السلامة، وألقوا تبعة ما طرأ من مصائب، على الزمان والأقدار، وكان طابع البكاء على ما حدث هو الغالب، ورغم أننا نلمح بين طيات الأبيات الشعرية دعوة ما إلى حكام المسلمين آنئذ كي ينبذوا التفرقة ويحاولوا إصلاح ذات البين، إلا أن أحدا لم يتجرأ أن يعري صراحة على الداء الذي كان سببا في نكبات المسلمين، فلم يحدث، أن رأينا أحدا ممن وصلنا شعرهم في تصوير نكبة القدس أن يشير إلى أن هناك أخطاء سياسية وعسكرية وقعت في عهد الفاطميين الذين استنجد بعضهم بالفرنجة[41]، وأخطاء أخرى في عهد الدولة الزنكية التي ضعضع دعائمها تلك الخلافات الشديدة بين أفراد أسرتها على الملك، مما أدى إلى نجاح الصليبيين في حملتهم الأولى على المشرق سنة 489هـ[42]، وأخطاء أخرى في عهد الدولة الأيوبية، التي صدق القاضي الفاضل في وصفها لما قال:" أما هذا البيت فإن الأباء منه اتفقوا فملكوا، وأن الأبناء منه اختلفوا فهلكوا"[43] فما أشبه البارحة باليوم إذ أن غير قليل من مسؤولينا ما شاءوا أن ينسوا الخلافات السياسية

والمذهبية، وما ترفعوا عن الأنانيات وما بذلوا الجهود الكافية لمجابهة العدو الصهيوني، ولم يعوا أن إيقاف المد الصهيوني الاستيطاني ومن خلفه، لا يكون إلا إذا أعددنا نفوسنا للقتال رجالا ونساء.

إن نظرة سريعة إلى عالمنا الإسلامي في الماضي، يجعلنا ندرك أن حاضرنا أشبه ما يكون بوضعنا السياسي في أثناء الحروب الصليبية، ذلك أن الصليبيين مثل الصهاينة في عصرنا الحاضر، لطالما نزعت نفوسهم إلى خيرات مشرقنا الإسلامي وموقعه الجغرافي، مستغلين تفرقنا وضعفنا آنئذ، وهو حالنا اليوم تماما، وما كان أمام أسلافنا ممن صلح رأيهم وقتئذ سوى الوحدة بين البلدان العربية الإسلامية جميعا، وخاصة المحيطة بفلسطين حيث مدينة القدس الشريف؛ سعى كل من عماد الدين ونور الدين الزنكيين وصلاح الدين الأيوبي إلى بلوغ الوحدة، وعمل كل واحد منهم على توجيه الأمة في إطار المبادئ الإسلامية السمحة النابذة للضعف والميوعة واللامبالاة بمصير هوية الأمة وممتلاكاتها، وقد وفقوا إلى بلوغ أهدافهم.ز فهل نحن اليوم في مستوى تحمل المسؤوليات لافتكاك حق إخواننا الفلسطينيين وإنقاذ المسجد الأقصى من براثن الصهاينة.؟

الهوامش:

1. في الكتب القديمة كنيسة القيامة من أشهر الكنائس المسيحية على الاطلاق، ويعتقد النصارى أن قيامة المسيح عليه السلام، تكون فيها، بنتها والدة قسطنطين الأكبر سنة 335م العروسي/ الحروب الصليبية/ في المشرق/ ص 32/.
2. تتمثل هذه الحروب في ما انتاب البلاد الإسلامية آنذاك من أحداث حربية مهولة كانت قائمة بين القوات المصرية الشيعية وبين قوات السلاحقة السنية في بلاد الشام.
العروسي/ المرجع نفسه/ ص32/.
3. العروسي/المرجع نفسه/ص32.
4. مدينة من مدن فرنسا، وعاصمة مقاطعة (إفرن).
5. محمد كرد علي/ خطط الشام/ ح1/ ص 250/
ومحمد العروسي/ مرجع سابق/ ص34.
6. هو إمبراطور بزنطي تولى الامبراطورية (من 474 إلى 503 هـ) ، (1081-1118) العروسي /مرجع سابق/ ص 30/.
7. هو صاحب السلطان طغل بك السلجوقي/ ولي شحنة بغداد، ثم قيادة الجيوش بحلب قتله رجل من الاسماعلية سنة 490هـ(1097).
8. محمد كرد علي/ المرجع نفسه/ ح1/ص 248/.
9. ويل ديوارنت/ قصة الحضارة/ ح4/ ص11 إلى 13/.

10. د. حسن حبشي/ الحروب الصليبية الأولى/ ص 19/.

11. محمد كرد علي/مرجع سابق/ج 1/ ص 248/،وويل ديورانت/ قصة الحضارة/ج4/ص11/.

12. د. محمد علي الهرفي شعر الجهاد والحروب الصليبية/ في بلاد الشام/ص36

13. د. سعيد عبد الفتاح عاشور/ الحركة الصليبية/ج1/ ص 28-29/.

14. د. شلبي/ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية/ ج5/ص 407/.

والعروسي/ الحروب الصليبية في المشرق والمغرب/ ص 33/.

15. ينتمي السلاجقة إلى زعيمهم سلجوق التركي من عشائر الأغور، الذي كان قائد لملك التركستان، ثم أسلم مع عدد غير قليل من عشيرته، ودخلوا في خدمة الدولة الغزنوية ثم لم يلبثوا بزعامة زعيمهم، طغل بك أن خرجوا عن طاعتها، ولما استنجدت بهم الخلافة العباسية في بغداد، استولوا عليها وأصبحت الكلمة العليا لهم/ راجع، أنور الرفاعي/ تاريخ العرب والاسلام/ ص 426-427/.

16. محمد العروسي/ الحروب الصليبية في المشرق والمغرب/ ص16-17/.

17. د. سعيد عبد الفتاح عاشور/ بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى/ص70-71/.

18. محمد العروسي/ الحروب الصليبية في المشرق والمغرب/ص47/.

19. قونية: مدينة في وسط تركيا الأسيوية، هي من إيقونيوم القديمة، عاصمة سلطنة الروم السلجوقية (474هـ-1081م).

20. الرها: هي مدينة أورفا المحالية بشرق تركيا، لها حرمة عند النصارى لكثرة ما فيها من الأديرة والكنائس، ويقال إن بكنيستها العظمى منديل المسيح عليه السلام. العروسي/ مرجع سابق/ ص 67/.

21. محمد سيد كيلاني/ الحروب الصليبية/ ص 15-16/.

22. ابن الأثير /الكامل/10/ص 278/.

23. ابن الأثير/الكامل/ 212/10/، ومحمد سيد كيلاني/ الحروب الصليبية/ص 16-17/.ومحمد العروسي/مرجع سابق/ ص47-54/.

24. ابن تغزي بردي/ النجوم الزاهرة/ 5/ ص 150.

25. هو محمد بن أبي العباس الأبيوردي، من الأدباء المشهورين؛ إذ كان رواية وتشابه وشاعرا، طريقا (ينظر: وفيات الأعيان/ج4/444).

26. الأبيوردي/ديوانه/ ص 32 وما بعدها/ وكذلك ابن الأثير/ الكامل/ج10/ص 282.

27. المذاكي: الخيول السريعة الكريمة، القشاعم: هنا، النسور أو الأسود

28. سللن: الضمير يعود على الحروب، الطلى: ج الطلاة وهي العنق.

29. يغضى: يصبر، الكماة، مفردها الكمي، وهو الشجاع أو لابس السلاح.

30. ابن تغزي بردي/النجوم الزاهرة/ ج5/151،152/.

31. الخلوق: ضرب من الطيب.

32. طفل: هنا، نبت

33. نعيم الحمصى/ نحو فهم جديد منصف لأدب الدول المتتابعة / ج2/ ص 207.

34. في نسخ أخرى، إلى الصحراء/النجوم/ 6/244/.

35. ابن تغري بردي/النجوم الزاهرة/ج6/ص244-245/.

36. أبو شامة/الروضتين/ج1/ق2/ص 305-306/.

37. الإخبات: الخشوع.

38. الطرحات: الأحزان

39. الصلاح : هنا صلاح الدين وفي اللفظ التورية

40. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج6، ص 245.

41. أبو شامة/ الروضتين/ ج2، ق2/ ص 332/.

42. محمد لعروسي/ الحروب الصليبية في المشرق والمغرب/ ص51-58/.

43. أبو شامة/نفسه/ج2/ق2/ص332.